اقتران الصبر بالتقوى وأثره في الكتاب الحكيم

إعداد
د. يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإنَّ كتاب الله كتابٌ حكيم،لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، وفيضه يتدفق، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر في آياته وقلب صفحاته زاده ذلك إيماناً ويقيناً ، وشوقاً ومحبة في قلبه، وفتح عليه من العلوم الشيء العظيم.

ومن تدبر آياته وأمعن النظر فيها، فقد فتح الله عليه فاستخرج حكمه، واستنبط أحكامه، وكشف ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه، وأظهر أسراره الكامنة، وكنوزه المغمورة.

وإنَّ من أعظم مجالات تدبره آياته المتعلقة ببعض الأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة، والتي جاءت جامعة لمحاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ، والتي قد قرن القرآن الحكيم بعضها ببعض، وأوضح مناسبة ذلك الاقتران وأثره على من تحلَّى بها واستمسك .

ومن هذه الصفات صفة الصبر الذي يُعَدُّ من أكثر الأخلاق والفضائل وروداً في القرآن الكريم حتى زادت مواضع ذكره فيه على مائة موضع،وما ذلك إلا لدوران جميع الأخلاق عليه،وصدورها منه ،فكلما قلبت خُلُقاً أو فضيلة في هذا الكتاب الحكيم وجدت أنها غالباً قد اشتملت على صفة الصبر أو اقترنت به ، وخاصة ما يتعلق بمقامات الإيمان، وأركان الإسلام ، وقيمه العظيمة ومُثُله العليا. فمثلاً: اقترن خلق الصبر بفريضة الصلاة في قوله تعالى:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾.(١) واقترن أيضاً بالأعمال الصالحة عموماً في قوله تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.(٢) وجُعل قريناً للشكر في مواضع عديدة ،كقوله تعالى:﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾.(٣) وقريناً للحق،قال تعالى:﴿ وَتَوَاصَوۡاْ

(١) سورة البقرة، الآية (٤٥).

(٢) سورة هود، الآية (١١).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٥).

بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.(١) وقريناً للمرحمة قال تعالى:﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾. (٢) وقريناً للجهاد قال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .(٣) وأعظم من ذلك اقترانه بالتقوى التي هي أصل الدين كله، ومفتاح كل خير في الدنيا والآخرة.وهي وصية الله للأولين والآخرين إلى يوم الدين، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾. (٤) ووصية جميع الرسل الكرام إلى أقوامهم في قوله تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .(٥)

ولما كان الصبر لا يكفي وحده وأنه لابد أن يكون صبراً مبنياً على طاعة الله والاستجابة له، لأن حقيقة الصبر: أن يصبر الإنسان على ما يقدره الله من قضاء،أو يصبر على طاعة ربه أوعن معصيته ،كان لابد له أن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقوى التي هي طاعة الله بفعل المأمور وترك المحظور ، وأن يقوم عليها ، فهي السبب في التغلب على المشاقِّ، وهي سرُّ التعامل مع المصائب وتحمل المخاطر.

كما أن اقتران الصبر بالتقوى يدل دلالة واضحة على كيفية تأثير الجانب الروحي وهو التقوى في الجانب السلوكي وهو الصبر ، فالصبر المبني على التقوى يهوِّن المصيبة ويجعل العاقبة حميدة ، ففي الحديث :" عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، ولا يكون ذلك لأحد إلا للمؤمن ".(٦)

لهذا فإن الله سبحانه تعالى ذكر الصبر والتقوى وقرن بينهما في غير ما موضع من كتابه الحكيم ، ورتب على ذلك منحاً جليلة ، وأجوراً عظيمة ، كالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض ، وحسن العاقبة ، والفلاح في الدنيا والآخرة، وغير ذلك من آثار اقتران

(١) سورة العصر، الآية (٣).

(٢) سورة البلد، الآية (١٧).

(٣) سورة محمد، الآية (٣١).

(٤) سورة النساء، الآية (١٣١).

(٥) سورة الشعراء، الآية (١٠٨)، ومثلها:(١١٠)،(١٢٦)،(١٣١)،(١٤٤)،(١٥٠)،(١٦٣)،(١٧٩).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢٢٩٥/٤) كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩) .

الصبر بالتقوى مما حواه كتاب الله العزيز ، وهذا ما دفعني لدراسة هذا الموضوع وجمع شتاته وتجلِّية ما فيه من هدايات وتوجيهات ربانية ، وهذا ما سيتجلى في تلك في المباحث الآتية .

منهج البحث:

المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي:

– أُورد في كل مبحث الآية أو الآيات المتعلقة به، ثم أبين معناها ووجه الدلالة منها، وأبرز ما فيها من أسرار بلاغية وهدايات قرآنية مما يذكره أهل التفسير.

– عزو الآيات إلى سورها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

– تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها مع الحكم عليها ما أمكن.

– تعريف الأعلام غير المشهورين تعريفاً موجزاً.

– توثيق أقوال أهل العلم من مصادرها.

– وضع ثبت للمصادر والمراجع في نهاية البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

١– تعلقه بكتاب الله ﷻ وتفسيره ، وكفى به شرفاً وعلماً .

٢– أن الكتابة في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال موضوع في القرآن، أو موضوع في سورة معينة مما برز مؤخراً خدمة لكتاب الله وإبرازاً لهداياته وكشفاً لأسراره، وقد جاءت هذه الدراسة في اقتران الصبر بالتقوى وأثر ذلك في كتاب الله الكريم لتكون دراسة تفسيرية، مجليةً ما فيها من هدايات وتوجيهات ربانية ، ومبرزةً ما حوته من أوجه بلاغية، وأسرار بديعية.

٣– أن صفة الصبر من الصفات التي كثر ورودها في القرآن الكريم مما يدل على أهميتها ، وأنها تمس جانباً مهماً في حياة المسلم حيث تتعلق تلك بما يواجهه المسلم من مصائب ومشاق ومحن في هذه الحياة، فباقتران الصبر بالتقوى تنقلب المحن منحاً، والمصائب مكاسب وأجوراً. وهذا سرُّ اقتران هاتين الصفتين، وهو ما دفعني لأنْ أتأمل سرَّ اقترانهما في كتاب الله الحكيم ، وأبرز ما فيه من هدايات ربانية وأسرار بلاغية .

لهذا الأمر ولرغبتي في خدمة كتاب الله تعالى عمدت إلى الشروع في دراسة هذا الموضوع وجمع شتاته، إسهاماً في إبراز الهدايات القرآنية ، فاستعنت بالله فنظمت خطته في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وفهارس .

المقدمة وفيها: أهمية البحث وسبب الكتابة فيه،وخطته،والمنهج المتبع .

التمهيد وفيه:

- معنى الصبر .
- معنى التقوى .

المبحث الأول: بالصبر والتقوى تتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

المبحث الثاني: الصبر والتقوى شرط المدد الإلهي .

المبحث الثالث:بالصبر والتقوى تُنال أجور أهل العزم.

المبحث الرابع: بالصبر والتقوى يتحقق الفلاح .

المبحث الخامس: بالصبر والتقوى تتحقق وراثة الأرض.

المبحث السادس: بالصبر والتقوى يتحقق العز والتمكين.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

ثبت المصادر والمراجع.

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته، وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد وفيه: معنى الصبر ومعنى التقوى .

أولاً: معنى الصبر:

ترد كلمة " الصبر " في اللغة العربية على معان عدة،منها :

١- الحبس والمنع: فكل من حبس شيئاً فقد صبره ، تقول: صبرت نفسي على ذلك الأمر ،إذا حبستها،ومنه قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾.(١)

" والصبر نقيض الجزع ، صبر يصبر صبراً فهو صابر وصبار وصبير وصبور ، والأنثى صبور أيضاً بغير هاء وجمعه صُبُر ". (٢)

٢ – الشدة والقوة : ومنه الصبرة ، وهي الحجارة الشديدة الغليظة ، والصبر بالضم وبضمتين: الأرض ذات الحصباء. والصَّبِرُ ككتف: عصارة شجر مر، الواحدة صَبِرَة . (٣)

٣ – الجمع والضم: ومنه الصُّبْرَةُ من الطعام جمعها صُبَرٌ، وهي: ما جمع من الطعام بعضه فوق بعض كالكومة،وفي الحديث: " أنَّ النبي ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طعام فأدخل يده فيها ". (٤)

٤- أعالي الشيء ونواحيه ، وأصبار الإناء: جوانبها. يقال: أخذ الإناء بأصبارها، أي: تامة بجميعها، الواحد صبر بالضم. وملأت الكأس إلى أصبارها ، أي: إلى رأسها. (٥)

هذه أشهر معاني الصبر في اللغة ، وهي معاني متقاربة في دلالتها على الصبر، ذلك أن الصبر فيه حبس ومنع بشدة وقوة، مع جمع لقوى النفس التي بها صلاح شأنها وعلو مقامها ، ولذا جاءت تعريفات أهل الاصطلاح مبنية على معاني الصبر اللغوية واشتقاقاته، وإليك أشهر تعريفاتهم.

١- عرفه الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢) في مفرداته بقوله: "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، وعما يقتضيان حبسها عنه ". (١)

---

(١) سورة الكهف، الآية (٢٨)، وينظر:الصحاح للجوهري (٢٦٩/٣)، القاموس المحيط للفيروز آبادي (٥٤١/١)، تاج العروس للزبيدي (٢٧٢/١٢)، مادة (صبر).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤٣٧/٤)، مادة (صبر).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٢٠/١٢)،الصحاح للجوهري (٣٠٧/٣)، مادة (صبر).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٩٩/١)،كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا،برقم (١٠٢)، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٩/٣).

(٥) ينظر:الصحاح للجوهري (٢٧٠/٣)، لسان العرب لابن منظور (٤٣٧/٤)، مادة (صبر).

٢- وعرفه الجُنَيد (ت٢٩٧) بأنه : " تجرع المرارة من غير تعبس" .(٢)

٣- وعرفه ذو النون المصري (ت٢٤٥)بأنه:"التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ".(٣)

٤- وعرفه الشريف الجرجاني (ت٨١٤) بأنه:" ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله " . (٤)

٥- وعرفه ابن القيم (ت٧٥١) بأنه :" حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش". (٥)

ومن خلال التعريفات المتقدمة يتبين أن الصبر يختلف باختلاف الأحوال والمواطن التي يحتاج إليه وفيه ، ويوضح ذلك الراغب في مفرداته حيث يقول: " الصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة

---

(١) المفردات للراغب (٥٦٥/١)، **والراغب الأصفهاني**: الحسين بن المفضل، أديب مفسر لغوي، عاش ببغداد وتوفي سنة (٥٠٢)، ينظر:سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/١٨)، معجم المفسرين لعادل نويهض (١٥٨/١).

(٢) ينظر:عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٨ ،و**الجُنيد بن محمد**:أبو القاسم ، من كبار الصوفية،أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه في العراق، مات سنة (٢٩٧)،ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (٢٤١/٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٨/٢٧).

(٣) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٨ ، **وذو النون المصري**: أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، قبطي الأصل من أهل النوبة بمصر،كان حكيما فصيحاً زاهداً ، توفي سنة (٢٤٥)، ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (٣٩٣/٨)،البداية والنهاية لابن كثير (٣٤٧/١٠).

(٤) التعريفات ص١٧٢، **والجرجاني**: علي بن محمد بن علي السيد الزين، أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي عالم الشرق،ويعرف بالسيد الشريف، مات سنة (٨١٤).ينظر:بغية الوعاة للسيوطي (١٠٦/٢)، البدر الطالع للشوكاني (٤٤٦/١) .

(٥) مدارج السالكين (١٥٦/٢) ، **وابن القيم**: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، من علماء الحنابلة ، وممن تتلمذ على شيخ الإسلام،توفي (٧٥١)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٩٣/٢)، كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره د.بكر أبو زيد ص٧

سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ، ويضاده المذل". (١)

ثانياً: معنى التقوى .

قال ابن فارس (ت٣٩٥)،:" وَقِيَ ، الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره. ووقيته أقيه وقياً. والوقاية: ما يقي الشيء. واتق الله: توقه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية. قال النبي ﷺ : " اتقوا النار ولو بشق تمرة " (٢)، وكأنه أراد: اجعلوها وقاية بينكم وبينها " . (٣)

وفي النهاية: " وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته عن الأذى ".(٤)

وقال ابن منظور (ت٧١١): " وقاه: صانه ، ووقاه ما يكره ، ووقاه: حماه منه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ ". (٥)

وقال أيضاً :" وقاك الله شر فلان وقاية، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ،(٦) أي: من دافع ،ووقاه الله وقاية بالكسر أي:حفظه، والتوقية الكلاءة والحفظ.

واتقيت الشيء وتقيته أتقيه وأتقيه تقى وتقية وتقاء: حذرته ".(١)

---

(١) المفردات (٥٦٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٤/٢)كتاب الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة،برقم (١٣٥١). ومسلم (٧٠٣/٢) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، برقم (١٠١٦).

(٣) مقاييس اللغة (٩٩/٦).**وابن فارس**: أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي من أئمة اللغة والأدب (ت٣٩٥)، ينظر:البداية والنهاية لابن كثير(٣٥٨/١١)، بغية الوعاة السيوطي (٣٢٥/١).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري (٤٨٤/٥).

(٥) لسان العرب (٤٠١/١٥)، مادة (وقي)، والآية (١١) من سورة الإنسان،**وابن منظور**:محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأفريقي، الإمام اللغوى الحجة. خدم ديوان الإنشاء بالقاهرة ،ثم ولي القضاء في طرابلس ، توفي سنة (٧١١)، ينظر: بغية الوعاة للسيوطي (٨٨/١)، الأعلام للزركلي (١٠٨/٧).

(٦) سورة الرعد، الآية (٣٤) .

فتلخص مما تقدم أن التقوى في اللغة العربية ترد على معان عدة أشهرها: الدفع، والمنع ، والستر والحاجز ، والحمى والصيانة ، والحفظ ، والحذر ، وكلها معاني متقاربة .

وأما من حيث أصل كلمة التقوى ووزنها فقد بيَّنه الخليل بن أحمد (ت١٧٠) بقوله: " والتقوى في الأصل: وقوى فعلى من وقيت،فلما فتحت أبدلت تاء فتركت في تصريف الفعل في التقى والتقوى والتقاة والتقية ". (٢)

وأما معنى التقوى شرعاً فقد جاء فيه عدة تفاسير عن السلف – رحمهم الله تعالى – كلها تصب في مصب واحد ، ومعنى واحد:

١– أورد الحافظ ابن كثير –رحمه الله– (ت٧٧٤)، في تفسيره عن عمر بن الخطاب ﷺ (ت٢٣)، أنه سأل أبي بن كعب ﷺ (ت٢١)،(٣) عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى , قال فما عملت ؟ قال: شمرت واجتهدت, قال : فذلك التقوى (٤) .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ (ت٤٠)، أنه قال:"التقوى:الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل ،و القناعة بالقليل،و الاستعداد ليوم الرحيل ".(٥)

وجاء عن ابن مسعود ﷺ (ت٣٢) أنه قال:" تقوى الله:أن يطاع فلا يعصى،ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ". (١)

---

(١) لسان العرب (٤٠١/١٥)، مادة (وقي) .

(٢) كتاب العين (٢٣٩/٥).**والخليل بن أحمد** بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض ، وأستاذ سيبويه النحوي. مات في البصرة سنة (١٧٠). ينظر:البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة للفيروز أبادي ص٢١، بغية الوعاة للسيوطي (٤١٨/١).

(٣) **أبي بن كعب**: أبو المنذر الأنصاري المدني ، سيد القراء وأقرأ هذه الأمة على الإطلاق،شهد العقبة، وبدراً، والمشاهد كلها، مات سنة (٢١) ، ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢١/١)، الإصابة لابن حجر (٢٧/١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٦٤/١)، **وابن كثير**:أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي،كان مفسراً محدثاً مؤرخاً،توفي سنة (٧٧٤)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (١١١/١)، البدر الطالع للشوكاني(١٥٣/١).

(٥) لم أجد له إسناداً ، وقد ذكره الصالحي في كتابه: سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد (٤٢١/١).

وقال سهل التستري–رحمه الله–(ت٢٨٣): " التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ،ولا يفقدك من حيث أمرك ". (٢)

وعن طلق بن حبيب – رحمه الله تعالى– أنه قال :" التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمته على نور من الله,وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله". (٣)

فهذه التفاسير في التقوى كلها تصب في معنى واحد، وهي تعود إلى أصل معناها اللغوي الذي هو الدفع والمنع والحاجز والحذر إلا أن أجمعها ما قاله طلق بن حبيب رحمه الله.فهذه هي حقيقة التقوى وهي الكنز العظيم الذي إذا ظفر به المرء،وجد فيه خيراً كثيراً، ورزقاً كريماً. فهي الخصلة التي تجمع خيري الدنيا والآخرة. والمتأمل مواقعها في القرآن الكريم يجد كم رتب عليها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضيف إليها من سعادة ؟

فمما تقدم يُعلم أن الصبر والتقوى قد بلغا هذه المكانة العظيمة وأن القرآن الحكيم قد أولاهما هذه الأهمية الكبيرة ، وأن مما يدل على أهميتها أيضاً تعلقهما بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها ، ولعظم شأنهما في حياة الناس وأمورهم الدينية والدنيوية ، يقول ابن القيم (ت٧٥١) " فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر ". (٤)

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦٥/٧)،وعبد الرزاق في تفسيره (١٢٩/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠٦/٧) برقم (٣٤٥٥٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٠٤/١٠)،كتاب المواعظ برقم (١١٨٤٧)،والطبراني في المعجم الكبير (٩٢/٩)، والحاكم في مستدركه(٣٢٣/٢) وقال:حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه،ووافقه الذهبي **وابن مسعود:** عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، من أجلاء الصحابة، ومن السابقين إلى الإسلام،توفي(٣٢) ،ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٣٠٨/٢)،الإصابة لابن حجر (٣٦٠/٢).

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي (١٤٤/١)، **وسهل بن عبد الله** بن يونس التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية له كتاب في تفسير القرآن ، توفي سنة(٢٨٣)،ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٢٩/٢)،سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣٢/٢٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره(١٨٩/٢ ،**وطلق بن حبيب** العنزي.تابعي جليل, روى عن عدد من الصحابة، كان من أهل البصرة، ومن كبار الزهاد، والعلماء العاملين، مات قبل المائة، ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٠١/٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٠١/٤).

(٤) الجواب الكافي (١/ ٦٦).

لذا قرن الله بينهما في كتابه الحكيم في مواضع متعددة وبين أثر ذلك الاقتران ، وهذا ما سيتضح ويتبين من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: بالصبر والتقوى تتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

قال الله تعالى:﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .(١)

الآية جاءت في سياق نهي المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله من الكافرين والمنافقين بطانة وخواص لهم من دون المؤمنين ، يطلعونهم على أسرارهم ودخائلهم، وما يضمرون لأعدائهم.لأن هؤلاء لا يألون جهداً ، ولا يتأخرون عن عمل فيه إيذاء وإضرار بالمؤمنين، في دينهم ودنياهم ، وهم يتمنون وقوع المؤمنين في الضيق والمشقة ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .(٢)

وهذا النهي من اللطيف الخبير هو في غاية الحكمة والتعقل لأن فيه حماية لمصالح المسلمين فلا تأتمن على أسرارها إلا خواصها،ولكي يعقل المؤمنون هذا الأمر، فيفهموه , ويعرفوا أضراره عليهم ، فيلتزموا فيه بتعاليم ربهم . (٣)

ثم أوضح الله تعالى في تلك الآية التي بصدد الحديث عنها حالاً دالة على شدة عداوتهم للمؤمنين،وهو أنه إذا أصاب المؤمنين نعمة أو خير من خصب أو نصر أو تأييد وكثرة أنصار، ساء هم ذلك ،﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾. وإن أصاب المسلمين شر كجدب أو تغلَّبَ الأعداءُ عليهم- لحكمة إلهية في ذلك- فرحوا بذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ ﴾ .

هذه هي حالهم مع المؤمنين التي نهانا الله ﷻ عن اتخاذهم بطانة ، وهذه هي صفتهم التي كشفها الله عنهم ، وهي استياؤهم وتألمهم لما يرونه من حسن حال المسلمين كائتلافهم واجتماع كلمتهم ونصرهم وعزتهم وقوتهم وسعة رزقهم، كما هو أيضاً فرحهم وسرورهم بما قد يشاهدونه من خلاف بين المسلمين أو وقوع هزيمة لجيش من جيوشهم، أو تغير حال عليهم بما يضر ولا يسر وهذه نهاية العداوة وشدة البغضاء، فهل مثل هؤلاء يتخذون أولياء ؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١١٨).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠٦/٢)،التفسير المنير للزحيلي (٥٧/٤)

قال ابن كثير (ت٧٧٤): " وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة – أي: جدب– أو أديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أحد، فرح المنافقون بذلك ".(١)

ويلاحظ فرق التعبير البلاغي في القرآن بين جملتي: مس الحسنة وإصابة السيئة، فهم يستاءون عند أدنى مس للحسنة، ولا يفرحون حتى تتمكن الإصابة بالسيئة.

قال ابن عطية (ت٥٤٦):"وذكر تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه.فدل هذا المنزع البليغ على شدة العداوة إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين ،وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة ".(٢)

وبعد هذا التنوير وهذا التحذير الذي يبصِّر المؤمنين بحقيقة الأمر، بألاَّ يتخذوا من أعدائهم بطانة ، وأن يجعلوا منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، يأتي القرآن موضحاً العلاج الناجع في رد كيد الأعداء ، ودفع أذاهم ، والنجاة من الشر الذي تكنه صدورهم، ويفلت على ألسنتهم منه ، مرشداً المؤمنين إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، فيقول المولى سبحانه: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣).

أي: باستعمال المؤمنين الصبرَ والتقوى واقترانهما يندفع الشر ويضعف الكيد. فإذا صبروا واتقوا لم يضرهم كيد الأعداء واحتيالهم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٦/٢)،

(٢) المحرر الوجيز (٥٢٣/١) ،وينظر: نظم الدرر للبقاعي(١٤٢/٢)،روح المعاني للآلوسي(٤٠/٤)، صفوة التفاسير للصابوني (١٤٥/١) ،**وابن عطية**:عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي الأندلسي القاضي ،كان فقيهاً عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً بالأدب،بصيراً بلسان العرب،مات سنة (٥٤٦).ينظر:طبقات المفسرين للأدنروي ص١٧٥، طبقات المفسرين للسيوطي ص٥٠

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).

قال ابن كثير (ت٧٧٤) :" يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه ". (١)

ويوضِّح السعدي (ت١٣٧٦) في تفسيره أنه بالصبر والتقوى يتحقق الوعد بالنصر ويندفع الشر ويزول المكر والكيد، ويشير إلى أن الصبر والتقوى من أقوى أسباب النصر فيقول: " فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر – وهي الصبر والتقوى– لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء" . (٢)

ويؤكِّد البقاعي (ت٨٨٥) أنَّ نصر المؤمنين واندفاع الشر عنهم مشروط بشرط الصبر والتقوى فيقول: " ولما كان هذا أمراً مبكتاً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر مشروطاً بشرط التقوى والصبر فقال:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾، أي: تكونوا من أهل الصبر والتقوى ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾، ثم علل ذلك بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ ،أي: ذال الجلال والإكرام، ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾، أي: فهو يعد لكل كيد ما يبطله ، والمعنى على قراءة الخطاب(٣): بعملكم كله ، فمن صبر واتقى ظفرته، ومن عمل على
غير ذلك انتقمت منه ". (٤)

ويوضِّح الآلوسي (ت١٢٧٠) سِرَّ اقتران الصبر بالتقوى وثمرة ذلك فيقول:" أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٩/٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٤ **والسعدي**: عبدالرحمن بن ناصر السعدي ،من علماء القصيم،برع في فنون شتى، وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة (١٣٧٦)، ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص٢٩٢، معجم المفسرين لـ.عادل نويهض (٢٧٩/١).

(٣) وهي قراءة الحسن والمطوعي،ينظر:البحر المحيط لأبي حيان (٣٤/٣)،إتحاف فضلاء البشر للدمياطي (١٢٣/١).

(٤) نظم الدرر (١٤٢/٢)،**والبقاعي**:إبرهيم بن عمر بن حسن،مؤرخ مفسر محدث، ولد ونشأ بالبقاع، سكن دمشق توفي بها سنة (٨٨٥)،ينظر:البدر الطالع للشوكاني (١٩/١)، التاج المكلل لصديق خان ص٣٥٨.

لا يضركم كيدهم شيئاً من الضرر، لا كثيراً ولا قليلاً ببركة الصبر والتقوى لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ،ومن تحلى بذلك كان في كنف الله تعالى وحمايته من أن يضره كيد عدو ". (١)

فإذا علمت أنه بالصبر بالتقوى يبطل كيد الكائدين ، ويزول شرهم، وتتحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، فعمَّ يصبرون وماذا يتقون ؟ قلت: يبين ذلك الطبري (ت٣١٠)بقوله:" وأما قوله:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾،فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ ﴾، أيها المؤمنون، على طاعة الله واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه: من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم من دون المؤمنين، وغير ذلك من سائر ما نهاكم،﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ ربكم، فتخافوا التقدم بين يديه فيما ألزمكم وأوجبَ عليكم من حقه وحق رسوله،﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ". (٢)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قد قرن في هذه الآية بين أمرين هامين لابد منهما في تحقيق النصر للمؤمنين وإبطال كيد الحاقدين،وتحقيق السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وهما: الصبر والتقوى ، وأن هذا الاقتران له أهميته وأثره في إضعاف كيد الكائدين، لما في هاتين الخُلَّتين الصبرِ والتقوى من عظيم محاسن الطاعات وعلو مكارم الأخلاق ،ومن تحلى بذلك كان في كنف الله ﷻ وحفظه من ضرر الأعداء. وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلم .

---

(١) روح المعاني (٤١/٤).**والآلوسي**: محمود بن عبد الله الحسيني، من علماء العراق مفسر محدث،توفي سنة١٢٧٠ ،ينظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٣٥٢/١)، الأعلام للزركلي (١٧٦/٧).

(٢) جامع البيان (١٥٧/٧)،**والطبري**: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، شيخ المفسرين،رحل في طلب العلم ، وبرع في التفسير والحديث والفقه والتاريخ،توفي سنة٣١٠ ،ينظر: تاريخ بغداد للبغدادي (١٦٢/٢)،طبقات المفسرين، للداودي (١١٠/٢).

المبحث الثاني: الصبر والتقوى شرط المدد الإلهي .

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ .(١)

هذه الآية وما قبلها متعلقة تعلقاً وثيقاً بالآية الواردة في المبحث السابق ، وقد أوضح ذلك كثير من المفسرين :

يقول الرازي(ت٦٠٦) في تفسيره :" اعلم أنه تعالى لما قال:﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾،أتبعه بما يدلهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا ".(٢)

ويقول ابن عاشور(ت١٣٩٣): " ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين ". (٣)

ويقول السعدي(ت١٣٧٦):" هذه الآيات نزلت في وقعة أحد ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة بدر لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجا من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في بدر لما صبروا واتقوا،وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر ".(٤)

واختلف أهل التفسير في قوله:﴿ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ ﴾ ، هل هي في غزوة بدر التي نصر الله ﷻ فيها رسوله ﷺ والمؤمنين على أعدائه المشركين، فأبدلهم من حال الضعف في الأرض إلى حال القوة والتمكين ؛أو هي في غزوة أُحُد التي اختبر الله ﷻ المؤمنين إذ لم يتبعوا أمر الله تعالى الذي يتضمن الطاعة للرسول ﷺ ولأولي الأمر، فبين لهم

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٢٤،١٢٥) .

(٢) التفسير الكبير (١٧٨/٨) ، **والرازي**:محمد بن عمر بن الحسين،مفسر متكلم ،له مصنفات عديدة، توفي سنة (٦٠٦)،ينظر:طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٠، طبقات المفسرين للداودي (٢١٧/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠٤/٣) ، **وابن عاشور**: هو محمد الطاهر ابن عاشور: من علماء تونس ولد ونشأ بها،ودرَّس في جامع الزيتونة، له عدة مؤلفات ، توفي سنة:(١٣٩٣)،ينظر:الأعلام للزركلي(١٧٤/٦)،معجم المفسرين عادل نويهض (٥٤١/٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٥

سبحانه وتعالى نتيجة المخالفة بذلك الاختبار الشديد،فمن قال:إن الآية في غزوة بدر فلأنَّ الله تعالى قال قبل هذه الآية:﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)، فقد ذكر النصر مجملاً في هذه الآية فيكون ما بعدها تفصيلاً لمجملها، والعامل في:﴿ إِذْ ﴾،قوله:﴿ نَصَرَكُمُ ﴾،والتقدير:إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة تقول للمؤمنين. وتكون هذه الآيات بياناً لأسباب هذا النصر التي ذكر فيها شروط المدد الإلهي، وهو المتفق مع السياق، وبهذا قال جمع من المفسرين(٢)، واختاره ابن جرير ورجحه ابن كثير، وهو الراجح والموافق للسياق ، لأن القصة سيقت لبيان أسباب النصر، وأنها لما توفرت في غزوة بدر وجد النصر، ولما اختلت في أحد لم يقع النصر.(٣)

وذهب آخرون (٤) إلى أن هذه الآيات في غزوة أُحُد وأن هذا الوعد متعلق بقوله:﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥)،وتكون:﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾ ظرف زمان بدلاً من ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾، ويكون قوله:﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ معترضاً بين الكلامين ، لكن قالوا:كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر، فلما لم يصبروا لم يقع ولم يحصل الإمداد . (٦)

فقوله:﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾، أي:اذكر حين نصركم الله ﷻ ببدرٍ وأنت تقول للمؤمنين وتعدهم تثبيتاً لقلوبهم،وقد هابوا العدو لكثرتهم وقلة عدتهم وعددهم: ألن يكفيكم ويسد حاجتكم إمدادُ ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة أنزلهم الله تعالى لقتال الكفار؟

---

(١) سورة آل عمران (١٢٣).

(٢) منهم الحسن وقتادة وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) تفسير ابن أبي حاتم (١٦٠/٣)،الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٣) ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧)، الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٤) منهم مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وغيرهم ، ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢).

(٥) سورة آل عمران (١٢١).

(٦) ينظر:جامع البيان (١٧٣/٧) الكشف والبيان (١٣٧/٣)،تفسير القرآن العظيم (١١٢/٢) .

ثم قال ﷻ:﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ،بلى حرف جواب، يفيد إبطال النفي،وإثبات كون ذلك العدد كافياً، أي: بلى يكفيكم ذلك الإمداد، وإن تصبروا على القتال، وتلتزموا التقوى، ويأتكم أعداؤكم على الفور يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مرسلين من عند الله لتقويتكم، مُعَلَّمِين أنفسهم أو خيلهم. (١)

فأوضحت الآية أن نزول المدد من السماء عند الشدائد، ولقاء العدو شرطه اقتران الصبر بالتقوى ، فمن تحلى بالصبر واستشعر تقوى الله، وعلم أن النصر من عند الله، فإنه لا محالة منتصر، وسيمده الله بروح منه، أولئك الملائكة الكرام. وقد أمد الله ﷻ المؤمنين ببدر بألف من الملائكة ثم أمدهم بثلاثة آلاف لما صبروا واتقوا ، ثم وعدهم بالزيادة بأن يمدهم بخمسة آلاف إن هم صبروا واتقوا حثاً لهم عليها وتقوية لقلوبهم وأتاهم المشركون من فورهم ليعجل لهم النصر ويسهل لهم الفتح .

قال أبو حيان (ت٧٤٥) في تفسيره:" رتب تعالى على مجموع الصبر والتقوى وإتيان العدد من فورهم إمداده تعالى المؤمنين بأكثر من العدد السابق وعلّقه على وجودها ، بحيث لا يتأخر نزول الملائكة عن تحليهم بثلاثة الأوصاف ". (٢)

ويؤكد السعدي(ت١٣٧٦) في تفسيره على شرط الإمداد من السماء فيقول: " فشرط الله بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط

الله له لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد الشرطين الأولين كما تقدم في قوله:﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗاۗ ﴾. " (٣)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨١/٣)، زهرة التفاسير(١٣٩٦/١).

(٢) البحر المحيط (٣٩/٣).**وأبو حيان**:محمد بن يوسف الغرناطي،نحوي عصره ولغويه ومقرئه، مات بمصر سنة(٧٤٥)،ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٢٨٧/٢), الأعلام للزركلي(١٥٢/٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٦

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قرن بين أمرين جليلين لهما الأثر الواضح في تحقيق النصر للمؤمنين، ونزول المدد من السماء عند الشدائد، ولقاء العدو وهم الملائكة الكرام ، وردِّ بغي المعتدين ، والقضاء على عدوان الظالمين، وهما: الصبر والتقوى ، وأن هذا الاقتران له أهميته وأثره في استنزال المدد من السماء ، لنصر المؤمنين وإضعاف كيد الكافرين، لما في هاتين الصفتين الصبرِ والتقوى من أثر عظيم ، فالصبر هو قوة الحروب، والصبر يعنى مواجهة العدو من غير خور أو فرار، والتقوى جماع الخير كله وهي تعنى التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الأخذ في الأسباب، فبالتقوى والصبر يتنزل النصر وينزل المدد من السماء . وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلم .

المبحث الثالث:بالصبر والتقوى تُنال أجور أهل العزم.

قال الله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾،(١)

الآية سيقت على وجه التسلية للمؤمنين، بأن ما حصل من إيذاء الكفار للمؤمنين يوم أحد وغيره ، وما يحصل من إيذاء في المستقبل بكل طريق يمكنهم إنما هو من البلاء ، وذلك لتتهيأ النفوس وتتوطن على احتماله، وتستعد للقائه،ولا يشتد جزعها بحلول ما يحل منه. فإن هجوم البلاء مما يزيد في اللأواء ،والاستعداد للكرب مما يهون الخطب.(٢)

وقد جاء الفعل:﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ مؤكداً بلام القسم الواقعة في جواب القسم المحذوف،وبنون التوكيد الشديدة التي هي أقوى في الدلالة على التوكيد من الخفيفة وذلك لإفادة تحقيق الابتلاء.(٣)

وقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية عن مواضع الابتلاء ، وكلها عزيزة يحرص عليها، وهذه المواضع هي المال، والنفس،والدين، وإنما قدم المال على النفس والدين على سبيل الترقي إلى الأشرف ، أو على سبيل الكثرة،لأنَّ الرزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس والدين. (٤)

فأما المال فالبلاء به يكون بإخراجه على سبيل النفقة الواجبة والمستحبة،وكذلك ما يصيبه من الآفات كالحوادث والعاهات والخسارة والنقصان، وأما البلاء بالنفس فبالجهاد وبالموت والأمراض والجراح وفقد الأحبة وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف.

وأما البلاء بالدين فقد أوضحه الله جل وعلا بقوله:﴿ أَذًى كَثِيرًاۚ ﴾، وهو يعمُّ

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨٦).

(٢) ينظر:التفسير الكبير (١٠٣/٩)، روح المعاني (١٤٧/٤).

(٣) ينظر:معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤٩٦/١)، التحرير والتنوير (٣٠٢/٣).

(٤) ينظر:البحر المحيط لأبي حيان (١٤١/٣).

كل ما يؤذي الأسماع من الألفاظ البذيئة كالطعن فى الدين ، والاستهزاء بالعقيدة ، والسخرية من الشريعة والاستخفاف بتعاليم الإسلام . (١)

وإنما كان البلاء بالدين أعظم هذه البلايا: " لأن المؤمن الصادق يهون عليه مالُه ، وتهون عليه نفسُه ، ولكنه لا يهون عليه دينه ، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى فى ماله ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذَى في دينه ". (٢)

ثم أخبر الله ﷻ عن العلاج الذي يعين على التغلُّب على هذا البلاء، وكيف يتعامل معه العبد المؤمن ؟ وهو أن يقابل ذلك كله بالصبر والتقوى، قال تعالى:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، فقرن ﷻ بين أمرين جليلين هما: الصبر والتقوى، فالصبر صبرٌ على تلك الشدائد ،وعلى ما ينال العبد المؤمن في ماله وفي نفسه من الابتلاء والامتحان وعلى ما يسمع من أذية الأعداء، ومقابلة ذلك بضبط النفس،وقوة احتمال الأذى. والتقوى تقوى الله تعالى فى كل ما أمر به، ونهى عنه ، فيتخذ ذلك وقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده. (٣)

وقد قدم ذكر الصبر ثم ذكر عقبه بالتقوى"لأن الإنسان إنما يقدم على الصبر لأجل أنه يريد الاتقاء عما لا ينبغي، وفيه وجه آخر وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة فأمر بالصبر تقليلاً لمضار الدنيا وأمر بالتقوى تقليلاً لمضار الآخرة فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة ".(٤)

ثم بيَّن ﷻ ما لهاتين الصفتين الجليلتين الصبرِ والتقوى، واقترانهما من أثر واضح، وهو صواب الرأي وحسن التصرف، وهو ما يجب العزم على التمسك به ثم الحزم عليه، لأنه مما أمر الله به.

يقول الرازي (ت٦٠٦) في تفسيره :"قوله:﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: من صواب

(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (١٣٧/٢)،لباب التأويل للخازن (٤٦١/١).
(٢) التفسير الوسيط ، سيد طنطاوي (٨١٩/١).
(٣) ينظر:التفسير الكبير للرازي (١٠٥/٩)، لباب التأويل للخازن (٤٦٢/١).
(٤) التفسير الكبير (١٠٥/٩).

التدبير الذي لا شك في ظهور الرشد فيه ، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه، فتأخذ نفسه لا محالة به، والعزم كأنه من جملة الحزم ".(١)

ويوضِّح البيضاوي (ت٦٨٥) في تفسيره أن تلك الصفتين من الصفات التي يجب العزم عليها من غير تردد ، فيقول:" من عزم الأمور،أي: من معزومات الأمور، أي:مما يجب العزم عليه من الأمور،أو مما عزم الله أن يكون يعني: أن ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا ".(٢)

فبالصبر والتقوى تكون العاقبة الحميدة لأهله ، وبهما تُنال أجور أهل العزم،يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣):" ووقع قوله:﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾،دليلاً على جواب الشرط،والتقدير:وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإنّ ذلك من عزم الأمور".(٣)

فتبين مما تقدم أن الله ﷻ قرن بين أمرين جليلين لهما الأثر الواضح في مقاومة الابتلاء والأذى والاعتزام عليه وهما الصبر والتقوى، اللذان هما حلية أولي العزم الأقوياء وهما زاد الطريق حال الابتلاء .

وإنما قرن الله ﷻ بين هاتين الصفتين لما لهما من أهميته وأثر في مقاومة البلاء ودفع الأذى بعزم وحزم حتى تنال أجور أولى العزم الأقوياء الصابرين المتقين، ولما في هاتين الصفتين الصبرِ والتقوى من أثر عظيم، فبالصبر تتوطن النفوس على احتمال ما يحصل من بلاء في المال والنفس، أو أذى من الأعداء، وتتهيأ للقائه،ولا يشتد جزعها بحلوله. وبالتقوى التي هي جماع الخير كله تتحقق طاعة الله في كل شيء ،والتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب في دفع كل بلاء أو أذى، فبالصبر والتقوى تهون المصائب، وتقوى العزائم،وتعظم الأجور. وهذا سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله أعلى وأعلم .

---

(١) التفسير الكبير (١٣٢٦/١).

(٢) أنوار التنزيل (١٢٧/٢). **والبيضاوي**:عبد الله بن عمر بن علي، من شيراز، ومن علماء الشافعية، قاض مفسر عالم بالفقه والأصول، توفي سنة(٦٨٥)، ينظر:البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٧/١٣)،طبقات المفسرين للداودي (٢٤٨/١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٧٣/٣).

المبحث الرابع: بالصبر والتقوى يتحقق الفلاح .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ،(١)

هذه الآية خاتمة سورة آل عمران ،وقد تضمنت وصية جامعة، ودعوة كريمة للمؤمنين، كما أنها جاءت في موقعها المناسب لختام السورة ولسياقها،" فسياق السورة حافل بذكر الصبر والتقوى ،يذكران مفردين ، ويذكران مجتمعين.كما أنه حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلة ،ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة،وإلى المرابطة والتقوى،فيكون هذا أنسب ختام".(٢)

وقد نادى الله ﷻ المؤمنين بمقتضى إيمانهم، وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الأربعة التي بها يتم الخير، ويعظم النصر، ويتحقق الفلاح والنجاح، وهذه الأوامر الأربعة هي على النحو التالي:

أولاً: الصبر،وهو جماع الفضائل وخصال الكمال ،وهو إمساك للنفس عن الجزع مما ينالها،ويعمُّ:الصبر على الشدائد والملمات،والصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي .

ثانياً: المصابرة،وهي أشد من الصبر،لأنها صبر في وجه الصابر، فهي تخصيص بعد تعميم،وهي تعني:أن يتحمل المؤمن المكاره الواقعة بينه وبين غيره،فهي أشدُّ الصبر ثباتاً في النفس " ذلك أنَّ الصبر في وجه صابرٍ آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قِرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه ، ثم إنَّ هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يملَّ قِرنه فإنّه لا يجتني من صبره شيئاً ، لأنَّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً ".(٣)

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٠٠) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٦/٢)، بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٨/٣) .

ثالثاً: المرابطة: وأصلها من الرباط، والربط وهو الشدُّ ، يقال: لكل من صبر على أمر ربط قلبه عليه.ويقصد بها الإقامة على مرابطة الغزو فى نحور العدو وحفظ الثغور بالترصد له ، والاستعداد لمحاربته حتى يكون المؤمن على حذر من عدوه. (١) وكذلك المرابطة بكثرة الخير والمداومة عليه ولزوم الطاعة.(٢)

رابعاً: التقوى، وهي جماع الخير كله، ولبُّ كل عمل صالح،وهي الإحسان في طاعة الله ﷻ،وترك معصيته، ودقة مراقبته في جميع الأحوال.

ثم إنَّ هذه الأوامر الأربعة التي أمر الله ﷻ بها ورتب عليها الفلاح والنصر تعود في الحقيقة لأمرين أساسين أولهما: الصبر، ويدخل فيه المصابرة والمرابطة لأنها تحمل للمكاره فهي نوع من الصبر، وثانيهما:التقوى التي قُرنت بالصبر ،وباقترانهما يتم الخير، ويعظم النصر في كل الأمور السابقة، ويتحقق الفلاح الذي هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب،الذي حقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم، وغايته رضى الله ،ونيل جزائه.

يقول الطبري (ت٣١٠) في تفسيره: " ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، يقول: لتفلحوا فتبقوا في نعيم الأبد، وتنجحوا في طلباتكم عنده ".(٣)

ويقول الآلوسي (ت١٢٧٠):" أي: لكي تظفروا وتفوزوا بنيل المنية،ودرك البغية، والوصول إلى النجاح في الطلبة وذلك حقيقة الفلاح ". (٤)

يقول السعدي (ت١٣٧٦): " يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك ،فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها. والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به ".(٥)

---

(١) ينظر: المفردات (٣٧٩/١)،تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٢) .

(٢) ينظر: التفسير الكبير (١٢٧/٩)، أنوار التنزيل (١٣٧/٢)،تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٢).

(٣) جامع البيان (٥٠٩/٧).

(٤) روح المعاني (١٧٥/٤) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص١٦٢

وإنما قرن الله ﷻ بين هذه الصفات، وهي الصبر على الطاعات، ومصابرة العدو والنفس والهوى، والمرابطة عند الثغور، وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، لما لها من أهمية وأثر عظيم من الفوز والنصر في الدنيا على الأعداء، والنجاة من عذاب الله، والظفر بنعيم الآخرة. وهذا هو سر اقتران الصبر وما عطف عليه بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

المبحث الخامس: بالصبر والتقوى تتحقق وراثة الأرض .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .(١)

لما تمالأ فرعون وملؤه، وأظهروا لموسى عليه السلام وقومه الأذى وشدة العداوة والبغضاء، وخاصة بعد إيمان السحرة بموسى عليه السلام وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة وقال فرعون مقالته: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾،(٢) هنالك جزع قوم موسى عليه السلام وتضجروا من ذلك، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن ثبَّتهم وسكَّن روعهم، وأرشدهم إلى الاستعانة على فرعون وقومه بالله العظيم والصبر على ما يلقونه من أذى فرعون وبطشه، لأنه لا سبيل لهم إلا الصبر والاستعانة بالله،ووعدهم أن الله سبحانه وتعالى يملك الأرض ومن عليها ويورثها لمن يشاء من عباده ولكن العاقبة الجليلة والمشرفة والتي يرضاها الله سبحانه هي لمن اتقى الله عز وجل.

وفي هذه الآية اقترنت ثلاثة أمور:

١-الاستعانة بالله ، وهو طلب العون منه في كل شيء ، ويعنى: الاعتماد على الله عز وجل في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، والثقة به، وهو في الآية مقصود به الاستعانة بالله وطلب العون والتأييد منه على رفع ذلك الوعيد والتهديد الصادر من فرعون وقومه،وعلى ما نزل بكم من البلاء فإن الله عز وجل هو الكافي لكم الحافظ الذي يقيكم كل شر. (٣)

٢-الصبر على تلك المكارة مع التمسك بالإيمان. ولا شك أن الصبر نتيجة الاستعانة بالله، فإن من علم أنه لا مدبر للعالم إلا الله تعالى انشرح صدره ، وزال همه،وهانت عليه

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٢٨) .

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٢٧) .

(٣) ينظر: لباب التأويل (٢٣٨/٢)، نظم الدرر (٨٧/٣) ، تيسير الكريم الرحمن ص٣٩.

مصيبته، وعلم أن كل ما يجري بهذا الكون بقضاء الله وقدره وتدبيره فبذلك يسهل عليه ما يواجهه من مصائب وأقدار. (١)

٣-التقوى ، وهي مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة، وعنوان السعادة ، والعبد أحوج ما يكون إلى لزوم التقوى في جميع أحواله حتى تصلح حاله وتتيسر أموره ويحقق له الله ﷻ وراثة الأرض ، وبهذا تكون العاقبة محمودة ، والخاتمة حسنة.

وجملة قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾،إشارة إلى أن ملك فرعون وجبروته وكبريائه صائر إلى الزوال ، وكذلك فيه إبعاد اليأس عن أنفس بني إسرائيل الناشئ عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه، وأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه لأن الأرض كلها لله. (٢)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن اقتران الصبر بالتقوى سبب في وراثة الأرض وأن المستخلفين فيها هم أهل التقوى، يقول الطبري (ت٣١٠) موضحاً هذا الأمر :" يقول:﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ ﴾، لعل الله أن يورثكم – إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم على السداد – أرضَ فرعون وقومه، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده،﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، يقول:والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأدَّى فرائضه ".(٣)

ويبين الرازي (ت٦٠٦) أثر التقوى وأنها سبب في عون الله ﷻ للعبد فيقول:"قوله:﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة ".(٤)

كما يوضح الخازن (ت٧٤١) في تفسيره أن العاقبة الحسنة والفوز والظفر لمن اتصف بالصبر والتقوى فيقول:" يعني: أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم , وقيل أراد الجنة يعني إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة ".(١)

---

(١) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/٣٠٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/٤٩٧) .

(٣) جامع البيان (١٣/٤٢) .

(٤) التفسير الكبير (١٤/١٧٣) .

فاتضح مما تقدم في ضوء الآية السابقة أن الله ﷻ وإنما قرن بين هذه الصفات الثلاث، وهي الاستعانة به على جميع الأمور ، والتي هي الوسيلة العظمى للصبر على ما يواجهه العبد من مكاره ، ومايناله من مصائب في هذه الدنيا، ثم تقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، لما لها من أهمية عظيمة في صلاح حال العبد واستقامته وتهيئته لأن يكون مستخلفاً في الأرض وارثاً لها . وهذا هو سر اقتران الصبر بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

المبحث السادس: بالصبر والتقوى يتحقق العز والتمكين.

(١) لباب التأويل (٢/٢٧٤). **والخازن**: علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي البغدادي، علاء الدين ، عرف بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق: عالم بالتفسير والحديث، ومن فقهاء الشافعية،مات عام (٧٤١).ينظر:طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/٤٢)، التفسير والمفسرون للذهبي (١/٢٩٠)

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾،(١)

هذه الآية وردت في سورة يوسف عليه السلام وفي نهاية القصة، وهي تلخص محور السورة ولبَّها وحكمتها الكبرى، وهو الصبر، فإنَّ نبي الله يوسف عليه السلام قد لقي" من أنواع البلاء ، وضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر وفي السجن وفي تآمر النسوة حتى نجاه الله من ذلك الضيق ".(٢)

وقد وقعت هذه الآية موقعها المناسب كما يوضح ذلك سياق الآيات، وذلك أنه لما جاء إخوة يوسف عليه السلام في المرة الثالثة وهم في حالة ضعف وعوز ووقفوا بين يديه،ووصفوا حالهم وقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٣) رقَّ قلبُ يوسف عليه السلام لهم ورحم حالهم، وانتهز تلك الفرصة لأنْ يكشف عن حقيقة نفسه ، ويبوح بالذي في نفسه، ويخبرهم بأن العزيز الذي يقفون بين يديه إنما هو أخوهم يوسف فقال لهم على وجه التلطف:﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾.(٤) وهو استفهام " عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ حيث ألقيتم يوسف في الجبّ، وعرضتموه للهلاك، وفرقتم بينه وبين أخيه، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافّة قاسية، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه ".(٥)

وأما قوله:﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ فهو كالاعتذار منه لهم كأنه قال: " أنتم إنما

(١) سورة يوسف، الآية (٩٠) .
(٢) صفوة التفاسير (٤٦/٢) .
(٣) سورة يوسف، الآية (٨٨) .
(٤) سورة يوسف، الآية (٨٩) .
(٥) التفسير المنير (٥٦/١٣) .

أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعني والآن لستم كذلك ".(١)

ولما كان سؤال يوسف عليه السلام إيَّاهم عما فعلوا به وبأخيه سؤالَ العارف بأمرهم وبحالهم أرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالاً على وجه التعجب والاستغراب فقالوا:﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، فأجابهم عما استفهموه:﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾، فأخبرهم كاشفاً لهم أمره ، وزادهم في الجواب قوله:﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾،لأنه سبق قوله :﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾، (٢) وليزيدهم ذلك معرفة له ، وليبني عليه قوله:﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾،بأن جمع بيننا على خير حال . (٣)

وقوله:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾،(٤)جملة تعليلية لقوله:﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾،أي:أن الله عز وجل أنعم علينا بالاجتماع بعد الفرقة وبعد طول المدة، وأعزنا في الدنيا والآخرة ،وذلك سببه التقوى والصبر، فمن يتق الله حق التقوى فيما أمر به ونهى، ويصبر على طاعة الله وعلى المحن التي يتعرض لها، فإن الله سيتولى أمره ويحميه من كل سوء، وينجيه من كل مكروه، ويحقق له العز والتمكين في الأرض.

ونبي الله يوسف عليه السلام امتُحن بالبلايا فصبر واتقى ،بدءاً من حسد إخوته له وكيدهم ثم رميه في الجبّ ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به ، ومراودته عن نفسه ، ثم محنة السجن بعد الرغد الذي لقيه في بيت العزيز ، فما كان منه إلا أن صبر على الأذى في سبيل الله واتقى الله ، فنقله الله تعالى من السجن إلى القصر وجعله عزيز مصر ، وملّكه خزائن الأرض وجعل له العز والتمكين في الأرض،قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ

(١) التفسير الكبير (١٦٨/١٨) .
(٢) سورة يوسف، الآية (٨٩) .
(٣) ينظر: البحر المحيط (٥ /٨٠)، نظم الدرر (٩٣/٤).
(٤) سورة يوسف، الآية (٩٠) .

﴿ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .(١) وهكذا يفعل الله تعالى بأوليائه المتقين الصابرين .(٢)

وفي هذه الآية الكريمة اقترن أمران مهمان هما: التقوى والصبر، اللذان هما جناحا الإحسان ، وأن من أثرهما العز والتمكين في الأرض وأن أهلهما من عباد الله المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

يقول البيضاوي (ت٦٨٥) في تفسيره: " إنه من يتق الله ويصبر على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ،وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر ".(٣)

ويقول أبو السعود (ت٩٨٢):" إنه من يتق، أي: يفعل التقوى في جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ويصبر على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ". (٤)

ويقول المراغي (ت١٣٧١) في تفسيره: " أي: إن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو: من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يؤتيه أجره في الآخرة ".(٥)

فاتضح مما تقدم في ضوء الآية السابقة أن الله ﷻ قد قرن بين صفتي التقوى

---

(١) سورة يوسف، الآية (٥٦) .

(٢) ينظر: صفوة التفاسير،(٤٦/٢)، التفسير المنير (٥٧/١٣) .

(٣) أنوار التنزيل (٣٠٧/٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم (٣٠٤/٤).**وأبو السعود**: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي من فقهاء الحنفية، تقلد قضاء القسطنطينية، توفي سنة (٩٨٢)، ينظر:البدر الطالع للشوكاني(٢٦١/١)، هدية العارفين للبغدادي(٢/ ٢٣٥)

(٥) تفسير المراغي (٣٥/٥) . والمراغي: أحمد بن مصطفى المراغي: مفسر مصري، تخرج بدار العلوم ثم درس بها. وولي نظارة بعض المدارس، توفي بالقاهرة سنة(١٣٧١)، ينظر:الأعلام للزركلي (٢٥٨/١).

والصبر ، تقوى الله في جميع أحواله ، وصبر العبد على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ، وأن من تمسك بهاتين الصفتين فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يوفيه أجره في الآخرة، وأن من أثرهما العز والتمكين في الأرض وأن أهلهما من عباد الله المحسنين . وهذا هو سر اقتران الصبر بالتقوى ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغة هذا الكتاب ، ووجه من وجوه إعجازه ، والله وأعلم .

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

– يُلاحظ أن كثيراً من الألفاظ نجد لها في المعاجم اللغوية معاني متقاربة توضح اللفظ وتقرب معناه ، وإن تعددت فهي تصب في معناه، ومن ذلك الصبر والتقوى ، فإن لهما في لغة العرب عدة إطلاقات يجمعها لفظ عام، فمثلاً: الصبر هو: الحبس والمنع والجمع ، وهي معانٍ تكاد تجتمع ، لأن الصبر صبر للنفس ومنع لها بشدة وقوة،مع جمع لقواها التي بها صلاح شأنها وعلو مقامها.وقلْ مثل هذا في لفظ التقوى .

– إنَّ تدبر كتاب الله الحكيم والتأمل في آياته، طريق الوقوف على أسراره الكامنة ودرره المغمورة وإظهار لها ، وإنَّ من أعظم مجالات تدبره تلك الآيات المتعلقة ببعض الأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة، والتي جاءت جامعة لمحاسن الطاعات ومكارم الأخلاق، والتي منها آيات الصبر التي كثر ورودها في القرآن الكريم وجاءت مقترنة بغيرها من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة،وكان لاقترانها أسرار بلاغية وآثار متميزة ، ومن هذه الصفات المقترنة صفة التقوى التي اقترنت بالصبر في مواضع متعددة ،كشفت عنها هذه الدراسة وجلت ما فيها من أسرار وخبايا.

– أوضحت تلك الدراسة أنَّ اقتران الصبر بالتقوى في القرآن الكريم له مناسبته التي تظهر عند التأمل في آياته وموطن ذكره والتي منها :

– تحقق السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار .

– تحقق الوعد بالنصر واندفاع الشر وزوال المكر والكيد.

– مقاومة الابتلاء والأذى والاعتزام عليه،فهما حلية أولي العزم الأقوياء وزاد الطريق حال الابتلاء .

– أنَّ الصبر على الطاعات، ومصابرة العدو والنفس والهوى، والمرابطة عند الثغور، وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن لها الأثر العظيم من الفوز في الدنيا على الأعداء، والنجاة من عذاب الله، والظفر بنعيم الآخرة.

-كما أن اقترانهما له أهمية عظيمة في صلاح حال العبد واستقامته وتهيئته لأن يكون مستخلفاً في الأرض وارثاً لها، وبهما يحصل للعبد العز والتمكين في الأرض وأن يكون من عباد الله المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وختاماً أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١-إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر- شهاب الدين أحمد بن محمد ابن

عبد الغني الدمياطي، دار النشر / دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٩– ط ٢–
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود بن محمد العمادي ،ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢.
٣–الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان.
٤– الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٥– الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦م.
٦–أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨.
٧– البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧.
٨– البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت ،لبنان.
٩–البحر المحيط أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢ ،١٤٠٣.
١٠–بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي — ت محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر، بيروت لبنان.
١١–البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة– محمد بن يعقوب الفيروزأبادي – دار النشر / جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت — ١٤٠٧ – الطبعة : الأولى، تحقيق : محمد المصري.
١٣– تاج العروس من جواهر القاموس– محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ،الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي– الناشر دار الهداية .
١٤– التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، صديق حسن خان.
١٥– تاريخ بغداد ، أحمد بن علي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٦- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.
١٧- التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني - الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ.
١٨- تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، ت: مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٠١هـ.
١٩- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي،ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،ط١، ١٤١٧هـ.
٢٠- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ،الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ.
٢١- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
٢٢-تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ،مصطفى أحمد الباز.
٢٣-التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ
٢٤-التفسير والمفسرون، محمد بن حسين الذهبي ، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٩٦هـ.
٢٥-التفسير الوسيط ، سيد طنطاوي _ بدون معلومات.
٢٦- تهذيب اللغة تهذيب اللغة- أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٢٧-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ .
٢٨-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ
٢٩-الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)،لابن القيم محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
٣٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- محمود الآلوسي أبو الفضل

الناشر : دار إحياء التراث العربي — بيروت.
٣١-زهرة التفاسير - محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة - دار النشر: دار الفكر العربي.
٣٢-سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد - محمد بن يوسف الصالحي الشامي، بدون معلومات.
٣٣-السنن الكبرى ،أحمد بن شعيب النسائي، ت: د.عبد الغفار سليمان البنداري ،سيد كسروي حسن ،الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ،ط ١ ،١٤١١
٣٤-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان،ط٢، ١٤٠٦
٣٥-الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية- إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور عطار-دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
٣٦-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله ابن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.
٣٧-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض، السعودية ١٤٠٠هـ.
٣٨-صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.
٣٩-طبقات الشافعية ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان.الناشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧ . الطبعة الأولى
٤٠-طبقات المفسرين - أحمد بن محمد الأدنروي- تحقيق : سليمان بن صالح الخزيم، الناشر : مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧
٤١-طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.
٤٢-طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
٤٣-عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين- لابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. الناشر:دار ابن كثير، دمشق، بيروت - مكتبة: دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية- الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ.

٤٤-العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الناشر : دار ومكتبة الهلال ،تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.
٤٥-غرائب القرآن ورغائب الفرقان- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري - دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ ط الأولى.
٤٦-في ظلال القرآن - في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، ط١٢، ١٤٠٦هـ.
٤٧-القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ.
٤٨- ابن القيم حياته وآثاره، د.بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩هـ)، مطابع دار الهلال،السعودية،الرياض ط١ ١٤٠٠ هـ.
٤٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٥٠-الكشف والبيان - أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ الطبعة : الأولى
٥١-لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد الشيحي، المعروف بالخازن تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت
٥٢-لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور،دار صادر،بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ
٥٣-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٤١٣هـ
٥٤-مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين — لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي- الناشر : دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ.
٥٥-المستدرك على الصحيحين ، الحافظ أبوعبدالله الحاكم، دار المعرفة، بيروت لبنان.

٥٦-مشاهير علماء نجد،عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ،دار اليمامة ،ط٢،١٣٩٤هـ

٥٧-المصنف في الأحاديث والآثار- أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي/ تحقيق: كمال يوسف الحوت - الناشر: مكتبة الرشد ، الرياض .

٥٨-مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي - تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

٥٩-معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٦٠-معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج،عالم الكتب، بيروت لبنان، ط١- ١٤٠٨هـ

٦١-المعجم الكبير- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني- الناشر : مكتبة العلوم والحكم — الموصل - الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ — ١٩٨٣

٦٢-معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.

٦٣-معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٤-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ

٦٥-النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

٦٦- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٦٧-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - المحقق : إحسان عباس الناشر : دار صادر - بيروت .